المحاضرة الرابعة: الثورة الصناعية:مفهومها، مراحلها، مظاهر وعواملها ( الجزء الاول)

تقديم:

تعتبر الثورة الصناعية من أهم الأحداث التي ميزت البلاد الاوربية خلال العصر الحديث اعتبارا من النصف الثاني من الثامن عشر.وهو الحدث الذي أدى إلى تغيير جدري على مستوى نمط الانتاج السائد ومن ثمة تبذلت القوى والعلاقات الانتاجية ما أحدث ذلك الانقلاب الثوري في حياة المجتمع الاوربي من النظام القديم إلى نمط جديد أكثر تقدما ونضجا.

ويعود الفضل في ذلك إلى التقدم التقني الباهر ومعه كل قوى الانتاج التي كانت تطمح إلى مزيد من التحرر والانعتاق من إسار التقليد والهيمنة، وكذا الرغبة في زيادة الانتاج لتوفير السلع والبضائع وتدفقها داخل الاسواق الداخلية او الخارجية.

فقد نشطت الهجرة من البوادي نحو المدن، وبدأ وحدات الانتاج تتبدل من الورشات الحرفية الصغيرة والمانفكتورات إلى المعامل والمصانع الكبرى.وبدأ العمل اليدوي يتوارى إلى الخلف بفعل المنافسة التي فرضتها السلع والمنتجات الصناعية الجديدة.

من جهة أخرى، بدأت طبقات جديدة تتشكل على الصعيد الاجتماعي فالكثير من الفلاحين والحرفيين تحولوا إلى طبقة عاملة، كما تحول العديد من الميسورين من طبقة السادة والاشراف إلى بورجوازية وهي الطبقات التي اعتبرت افرازا للنظام الرأسمالي الناشئ.

وقد واكب هذه الثورة الصناعية أفكار ودراسات حول طبيعتها ونتائجها إلى حد اعتبرت عند البعض بمثابة ثورة اجتماعية وفكرية في المقام الاول.

بيد أنه من باب التوضيح القول إن التحول الذي حدث خلال هذا القرن لم يكن تحولا في مجال الصناعة وحسب، بل مس ميادين أخرى موازية همت باقي القطاعات الانتاجية من فلاحة وتجارة.كما أن بوادر التغيير من نمط الانتاج لم تكن أيضا وليدة ظرفية القرن التاسع عشر، انما كانت تضرب بجدورها في ظرفية النهضة الأوربية التي كان لها الفضل في إحداث تغيرات على مستوى الحياة العامة للمجتمع والدولة بأروبا، وزادتها ظرفية القرن الثامن عشر صقلا ودقة بفضل ما حققته من اختراعات تقنية وعلمية.

والواضح أن تراكم الرأسمال ووفرة التقنية أدى إلى الاقبال على الاستثمار في القطاع الصناعي الذي نما بشكل مهول في مختلف دول أوربا الغربية.

والحق أن فهم الثورة الصناعية لن يستقيم إلا على ضوء فهم المناخ العام الذي وسم المرحلة بميسمه.وهو المناخ المطبوع سياسيا بالصراع فيما بين أنصار النظام القديم والنظام الجديد، واجتماعيا بظهور قوى ثورية خرجت من أحشاء المجتمع، كان هدفها اصلاح أوضاعها المزرعية، وفكريا بتنامي أفكار ليبرالية وقومية واشتراكية اسهمت مجتمعة في الدفع بالصراع إلى مداه الممكن.

فما المقصود بالثورة الصناعية؟ وما العوامل التي كانت وراء هذا الحدث النوعي؟ وما مظاهرها؟

في مفهوم الثورة الصناعية

يقصد بالثورة الصناعية ذلك الانقلاب الجدري الذي مس القطاع الصناعي والحرفي بأوربا خلال القرن التاسع عشر انطلاقا من انجلترا لينتقل صداه إلى باقي دول غرب أوربا وغيرها من بلدان العالم الرأسمالي.

فقد تحولت المجتمعات من النمط الزراعي إلى النمط الصناعي، ما يعني أن الارض بدأت تفقد قيمتها الاستثمارية. فظهرت بذلك مدن صناعية جديدة وتوسعت أخرى وبرزت طبقات جديدة وتقنيات حديثة كما ظهرت قيم وتقاليد لم يكن للمجتمع الاوربي عهد بها.

وعلى الرغم من أن الثورة الصناعية ارتبطت بالقرن التاسع عشر، إلا أن الفضل في ذلك يعزى إلى ما حققه القرن الثامن عشر من انجازات علمية أفادت في نمو قوى الانتاج على مدار القرن التاسع عشر، بل إن تلك المنجزات ما تزال مستمرة إلى وقتنا الحاضر.ما ينم على أن هذه الثورة لم تكن ظرفية، بقدر ما هي عملية مسترسلة تتجدد مع مرور الوقت.

لقد عرف الفرنسي P.Mantoux الثورة الصناعية على أنها:تلك التغيرات العميقة التي حولت تدريجيا تلك المجتمعات التقليدية ذات الطابع الزراعي إلى مجتمعات صناعية يغلب عليها النشاط الصناعي.كما عرفها Hayes بأنها تغير جوهري أو سلسلة من التغيرات الاساسية في طريق الصناعة نقلت الجماهير من الحرف الزراعية الموروثة إلى أساليب جديدة في العمل والسفر والمعيشة بحيث شمل التصنيع جميع النواحي تقريبا.

لقد كان من نتائج هذه الثورة أن ظهرت طبقة عمالية عاشت ظروفا مزرية وقاسية، مما أثار تساؤلات الباحثين، خاصة الاشتراكيين، ممن فضلوا تعبير " الثورة الصناعية" لإبراز أهميتها وعمقها المجتمعي، لهذا فتاريخ ميلاد الطبقة العاملة ارتبط عند الاشتراكيين بميلاد الثورة الصناعية بإنجلترا خاصة في النصف الثاني من القرن 19 كما ذهب إلى ذلك انجلز. فيما فضل البعض توظيف " الانقلاب الصناعي" أو " التحولات الصناعية".

لقد استعاضت الثورة الصناعية عن القوة العضلية للإنسان بالآلات على نطاق واسع، وعوضت الورشة الصغيرة بنظام المعمل الخاضع لقانون منظم ومحكم. مثلما تميزت بتغييرعلى مستوى المعاملات النقدية والقروض.

إن القول بجذرية حدث "الثورة الصناعية" يجعلها من الأحداث القلاقل في تاريخ البشرية التي وصفت بهذا الوصف الذي أدى إلى تغيير البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية انطلاقا من مهدها انجلترا، فقد حررت الانسان من قيود النظام الفيودالي وفتحت أمامه آفاقا رحبة للخلق والابداع في ظل مرحلة جديدة اختلفت كليا عن سابقتها.ولعل ذلك ما حدا بالبعض إلى نعتها بثاني أكبر انتقال في تاريخ البشرية بعد الانتقال الأول من مرحلة القنص والالتقاط في العصر الحجري الحديث إلى مرحلة الزراعة وتربية الحيوان والاستقرار.

مع ذلك يصعب تحديد تاريخ بداية ونهاية هذا الحدث النوعي فهو مدين بدين كبير للقرن الثامن عشر وربما لعصر النهضة الأوربية خلال القرن السادس عشر، وإن كانت أغلب الدراسات تؤطرها ما بين منتصف القرن 18 والنصف الأول من القرن 19.

مرت الثورة الصناعية بثلاث مراحل أساسية أهمها:

المرحلة الأولى: امتدت من 1760 إلى 1830 وتميزت باختراع الألة البخارية، وحققت فيها بريطانيا تقدما اقتصاديا وعسكريا كبيرا. ويطلق عليها " الثورة الصناعية الأولى" لتمييزها عن الثورة الثانية اواخر القرن 19 وبداية 20، ثم انتقلت إلى باقي بلدان غرب أوربا خاصة بلجيكا، ولم تتقوى فرنسا صناعيا إلا بعد سنة 1848، أما ألمانيا فبعد توحيدها سنة 1870.

وظلت بلدان أوربا الشرقية بعيدة عن الحركية الصناعية ومنها روسيا التي ماتزال بدورها خارقة في مظاهر الاقطاع، قبل أن تستعيد في عقود قليلة عافيتها الصناعية.

المرحلة الثانية: انطلقت أواخر القرن التاسع عشر خاصة بعد اكتشاف الكهرباء من قبل الباحث الامريكي توماس ألفا أديسون سنة 1880، وتعزز ذلك باكتشاف النفط الذي اسهم في تطوير الصناعات الكيميائية وظهور السكك الحديدية التي استعاضت عن الخيول.

مظاهر الثورة الصناعية

كانت انجلترا مهد الثورة الصناعية قبل أن ينتقل اشعاعها إلى بلدان العالم الرأسمالي في أوربا الغربية والولايات المتحدة الامريكية واليابان.

وقد تجلت معالمها في ازدهار مختلف أنواع الصناعات كالنسيج والغزل والتعدين...مثلما ظهرت المصانع والأفران العالية الحرارة التي كانت تنصرف إلى صهر الحديد.مما مكن من الاستخدام المكثف للآلات الحديدية في مختلف القطاعات الاقتصادية خاصة النشاط الفلاحي الذي ازدادت حاجاته إلى مكننة مراحل إنتاجه بعد تحوله من الطابع العائلي الاستهلاكي إلى الطابع التسويقي بفعل دخول العلاقات الرأسمالية إلى الأرياف الذي فكت عزلته بفعل ربطها بشبكة السكك الحديدية. وهو ما سهل من مأمورية تغيير نمط حياة السكان القرويين ومن تزويد الفلاحين بالأدوات الزراعية الجديدة وغيرها من المواد والأسمدة الزراعية القادمة من المدن ومن ضواحيها.

كما سجلت المرحلة انتقال ملكية المشاريع الصناعية من الافراد إلى الشركات الكبرى مساهمة كانت أو كارتيلات...دخلت في إطار التعاون حينا درءا لخطر المنافسة أو في اطار الاحتكار بوازع السيطرة والهيمنة على الأسواق بفعل الاتجاه نحو مزيد من التمركز.

وبذلك ازدادت الثروة لدى المستثمرين في المجال الصناعي ولجأ الكثيرون منهم إلى استثمار الفوائض خارج البلد الام أو في القطاع البنكي والمالي.

أما على المستوى الديموغرافي فعرفت أعداد السكان نموا مطردا بفعل ارتفاع الولادات وانخفاض الوفيات مع غلبة السكان الحضريين على الريفيين. مثلما ارتفعت مستويات المعيشة بفعل جودة ووفرة الانتاج.

كما ظهرت مدن جديدة وتوسعت أخرى أطلق على بعضها بالمدن المليونية وهي تلك التي يسجل تعداد سكانها المليون نسمة على غرار لندن وباريس وغيرهما.

من جهة أخرى، توسعت التجارة وتقدمت المواصلات البرية ( سكك حديدية) وبحرية ( سفن وبواخر)، بهدف تصريف الفائض الانتاجي والبحث عن المواد الأولية والرغبة في استثمار الأموال خارج الحدود.وقد ساعد مبدأ التخلي عن الرسوم الجمركية بين البلدان إلى تنامي العلاقات التجارية بين البلدان الاوربية أو بينها وبين باقي الدول الأخرى.

غير أن المظاهر الايجابية للثورة الصناعية لا يلغي تفاقم المشاكل والازمات الاجتماعية خاصة في صفوف الطبقة العاملة التي كانت تأن من وطأة الاستغلال وعاشت ظروفا مأساوية شكلت أرضية للاحتجاجات والثورات التي شهدها القرن التاسع عشر.

أسباب الثورة الصناعية

انطلقت الثورة الصناعية من بريطانيا التي حملت مشعل هذا الانقلاب النوعي ، فيما واصلت تداعيات الثوة الفرنسية والحروب النابليونية تأثيراتها في أغلب البلدان الأوربية ما بين سنة 1789 إلى حدود مؤتمر فرساي سنة 1815 الذي وضع حدا لتوسعات نابليون. وهذا ما يفسر أسبقية بريطانيا في تدشين هذا الحدث التاريخي.

تضافرت عدة عوامل لتسهم في بروز "الثورة الصناعية'' على الاراضي الانجليزية قبل أن تنتشر في مختلف دول غرب أوربا ثم العالم الرأسمالي بوجه عام.

ويمكن رصد تلك الأسباب فيما يلي :

العامل السياسي: تمثل في استقرار الأوضاع الأمنية مما انعكس ايجابا على مناخ الاستثمار. فبعد انهاء ثورات القرن 17 نعمت بريطانيا بعهود من الطمأنينة والأمن الداخلي خاصة بعد الثورة المجيدة لسنة 1688م التي أطاحت بالملك جيمس الثاني وتنصيب ابنته ماري وزوجها وليم اورانج.فقد كان من نتائج هذه الثورة إحداث اصلاحات دستورية أبرزها وثيقة " إعلان الحقوق" الصادرة عن البرلمان للحد من طغيان الملكية.

وكان من شأن تلك الاصلاحات الدستورية التي عرفتها البلاد ابان القرنين 17 و18 من أن فتحت أبواب واسعة أمام الطبقات الميسورة لمزاولة أنشطتها الاقتصادية فضلا عن تسيير شؤون البلاد.

العامل الجغرافي: كان لموقع المملكة المتحدة باعتبارها أرخبيلا من الجزر الواقعة على الساحل الشمالي الغربي لأروبا دورا في النمو الاقتصادي لهذا الاتحاد الذي رأى النور سنة 1800.فقد ظلت الأراضي البريطانية في منأى عن الحروب ( وإن شاركت فيها) التي شهدتها القارة متجنبة بذلك الكثير من الخسائر طالما أن مجالها الجغرافي لم يكن مسرحا لتلك الحروب.

العامل التنظيمي: تمثل في طبيعة النظام الرأسمالي القائم على الحرية الاقتصادية وما أفرزه من ظهور أشكال التركيز الناجم عن عدم قدرة المؤسسات الصغرى مقاومة تخفيض الاسعار ما أدى إلى ابتلاعها من طرف المؤسسات الكبرى. وبذلك تركزت السلطة الاقتصادية بين قلة من الشركات:

التركيز الافقي: ويقصد به هيمنة مؤسسة ما على بعض المؤسسات على جزء كبير من انتاج مادة مشابهة.

التركيز العمودي: نعني به هيمنة مؤسسة ما على سلسة إنتاج مادة معينة من البداية إلى النهاية.

وتتضح ظاهرة التركيز بجلاء واضح في الشركات الكبرى أهمها التروست Trusts) (  وهي الناجمة عن اندماج عدة شركات تحت ادارة واحدة.

الكارتيلات (Cartels): عبارة عن اتفاق بين عدة مؤسسات تنتج مادة معينة على الحد من المنافسة بينهما وتحتفظ فيه كل مؤسسة بشخصيتها القانونية والمالية. وقد شهدت ألمانيا ظهور أولى هذه الأشكال من الكارتيلات.

شركات التملك أو الهولدينغ Holdings) ): عبارة عن شركات مالية تقوم باقتناء غالبية أسهم عدة شركات مالية وصناعية وتجارية على أساس احتفاظ هذه الاخيرة باستقلالها الكامل من الناحية القانونية، إلا أنها تخضع لصاحب شركة التملك، عن طريق ممثليه في المجالس الإدارية، أو عن طريق المديرين الذين يعينهم. ومن أهمها مجموعة روكفلير المالية ومجموعة روتشيلد.

وبذلك بدأت معالم الرأسمالية المالية تطفو على السطع بعد تراجع القطاع الصناعي وفقدانه لاستقلاله النسبي لصالح المؤسسات البنكية التي أتاحت معاملات جديدة وتسهيلات لمختلف المستثمرين.

دور حركة الاختراعات والأفكار العلمية: تمثلت في سلسلة من الاختراعات التقنية التي ارتكزت على مكننة حلقات الانتاج الاقتصادي وغيره من المجالات بهدف الرفع من الانتاجية والتقليل من الجهد العضلي وإنجاز المهام التي يصعب القيام بها يدويا أو تجاوزا للأدوات والأساليب العتيقة.وقد شكلت الآلة البخارية أو قاطرة البخار سنة 1814 أهم الاختراعات التي ميزت هذه الظرفية فضلا عن اختراعات همت باقي القطاعات فمنح توماس ألفا اديسون براءة اختراع المصباح الكهربائي عام 1880، وكارل فون ليند براءة اختراع آلة التبريد عام 1878 وعرف القرن اختراع نول القماش والبطارية وأضواء الغاز كما شهدت ثلاثينيات هذا القرن اكتشاف آلة الخياطة وآلة الحصاد كما اخترع صمويل مورس التلغراف...وغيرها من آلاف براءات اختراع.

أهمية الموارد الطاقية والثروة المعدنية: شكل الخشب أهم الموارد الاساسية التي ارتكزت عليها الصناعات اليدوية على مدار عقود طويلة، غير أن الضغط الذي مورس على الغطاء الغابي أسهم في تقليص من مساحته.مما شجع على البحث عن مصادر طاقية أخرى خاصة الفحم الحجري الذي بدأت أسعاره تتصاعد.

العوامل الطبيعية: وفرت الظروف الطبيعية شروطا لازدهار الصناعات خلال القرن التاسع عشر خاصة صناعة النسيج التي استفادت من المناخ الملائم والموارد المائية وخصوبة التربة، لذلك ازدهرت زراعة الاصواف التي شكلت قاعدة صناعة النسيج والملابس.

العوامل البشرية: تمثلت في توفير اليد العاملة بسبب ارتفاع أعداد السكان و ارتفاع الديموغرافي السريع الذي عرفته أروبا، فضلا عن تنامي الهجرة القروية خاصة مع ظهور المصانع والمعامل التي حلت محل الورشات الحرفية.

ـ تأثير الثورة الفلاحية: مهدت هذه الأخيرة للثورة الصناعية، نظرا للتلازم القائم بينهما فقد ازداد طلب القطاع الأول على منتجات الثاني من الآلات والتقنيات الحديثة مثل السماد الصناعي أو الأنابيب الجوفية لتحسين وسائل الصرف، فضلا عن التطورات الايجابية الحاصلة في هذا المجال( ارتفاع الانتاجية، استغلال نتائج البحث العلمي، استغلال عقلاني للأرض على قاعدة التناوب الزراعي، ظهور زراعات تسويقية ادخال النباتات الجذرية والهوائية...).

من جهة أخرى، أسهمت التغيرات التي مست البنية العقارية في البوادي، من خلال حركة التسييج والقوانين التي أطرتها، في فقدان صغار الفلاحين والمعدمين لمصادر رزقهم حين التهمت الملكيات الكبرى المساحات التي خصصت للفلاحين في الاراضي المفتوحة أو المشتركة.

وبذلك تحول العديد منهم إلى مزارعين لدى الملاك الكبار في الاراضي المسيجة، فيما اضطر آخرون منهم إلى هجرة قراهم نحو المدن، وشكلوا أحد العناصر الاساسية لقيام الثورة الصناعية أي الطبقة البروليتارية.